مقدّمة

•

كتبتُ هذا الكتاب في خلال الحرب العالمية الاخيرة ، وقد يكون من الحرمة للحقيقة والدقة ، القول: انني فرغت من كتابته ، في خلال الحرب العالمية الاخيرة . فقد كنت بدأت اكتبه في اواخر شهر آب من عام ١٩٣٩ . واشتعلت نيران الحرب، في اليوم الثاني من شهر ايلول من ذلك العام . فاعتقلتني السلطات الغاصبة ، المستعمرة ، الحاكمة يومذاك ، في اليوم الثالث من ذلك الشهر ، ولم أكن كتبت إلا صفحات ، لا يتجاوزن الخمس أو اكثر قليلا ، فأسدل الستار على الكتاب وعليّ ... أيضاً ...

كانت فكرة الكتاب مختمرة في رأسي ، وكانت هذه القضية « قضية العرب » تشغل عقلي ، وفكري، وروحي ، بصورة مُلحة ، تأخذ عليّ جماع ذاتي وكينونتي ، فأشعر بقدسية الفرض الذي تفرضه طبيعة هذه القضية ، على العاملين المؤمنين ، في عرضها ، وشرحها ، وتبسيطها . فتستوي ، كما ينبغي لها ان تستوي ، صورة ذهنية بارزة ، دقيقة الصناعة ، جلية الملامح ، واضحة القسمات ،

مفهومة فهماً تاماً كاملا في « كليتها » وفي « جزئياتهـــا » ، أشعر بذلك ، فما أهُمّ بان البي نداء هـــذه القدسية ، حتى يصرفني عن التلبية ، نداء آخر ، بل نداءات يومية متتالية ، غـــير منقطعة ، تتصل من النداء الأقدس بالصميم : نداء الغضب للحق ، يهزأ به ، ويخوض في تهشيمه وطمسه ، المستعمر الغاشم . ونـــداء الغضب للكرامة ، يسخر منها ، ويتهجّم عليها ، ويهتك سترها ، المستعمر الغاشم . ونداء الغضب للحرية ، يعبث بها ، وينتهك حرمتهـــا ، ويجلدها بسوطه ، المستعمر الغاشم . ونداء الحاجـــة الطبيعية الى العيش ، أدنى الحاجات ، ولكن أشدّها إلحاحاً : الحاجـــة الى الرغيف ، يأخذه المستعمر الغاشم ، بيديه الاثنتين ، فيقطّعـــه تقطيعاً ، ويضرب بقطعه الارض ،ثم يدوسه بحذائه ، وأهل الرغيف ينظرون اليه ، في وجوم ، وفي هلع . الحاجة الى اللقمة ، ينتزعها المستعمر الغاشم ، بأصابعه القذرة ، يصطنع لها القوة ، من فم صاحب اللقمة الجائع الصابر ، ويرمي بها إلى الكلاب .

وفي كل نداء من هذه النداءات ، قدر كاف ، من العوامل التي تهيب بك إلى النضال ، الى مكافحة علة العلل في هذه النداءات . فأنت ، في كل ساعة ، إن لم أقل ، في كل دقيقة ، قلق النفس ، مضطرب البال ، معذب الذات ، يُلح عليك الغيظ ، وتساور نفسك الثورة ، ويضغط على اعصابك الحرمان ، ويهددك خطر الجوع ، فتعجز ، — وتأبى ان تعجز — وتـكاد تتمزّق أو تتحطم .

على ان الغريب — وقد لا يكون غريباً — ان يتفتق العجز ،

عن قدرة ، وينبثق من الضيق الشديد ، الفرج .

ذلك ان الله سبحانه وتعالى ، شاء — ولا راد لمشيئة الله — ان يقيّض لي ، من مراحل تحكم المستعمرين الغاشمين ، الاقوياء الضعفاء ، في العناصر المادية من ذاتي ، مرحلة استقرار ، في اعتقال ، قعد بي — لانقطاع الوسائل — عن النضال العام. وتيسّر لي أن أتم كتابة هذا الكتاب ، الذي أرجو ان يكون فيه — على هينته — شيء من الخير لقومي ، يصح ان يكفّر به ، قلة غنائي عنهم ، واثمي بالقصور في خدمتهم . لقد كان هذا الكتاب قليل الحظ ، وكنتُ ، به ، قليل الحظ معه ، فان له لقصة ، تبدأ بعد الانتهاء من كتابته ، كما كانت له القصة التي عرفتَ ، بعد البدء في كتابته .

خرجتُ من المعتقل في أواخر سنة ١٩٤٣ . وفي اوائل سنة ١٩٤٤ ، أحببتُ ان اطبع كتابي هذا ، وكانت المراقبة في ذلك الحين ، شديدة جداً ، فخشيةً من ان يُمنع فيه المراقبون — وكانوا خليطاً من انكليز وفرنسيس وعرب لبنانيين — شطباً وتعديلا ، خطر لي أن اطلع عليه ، صديقاً ، كان يومئذ ، على رأس الحكم في لبنان ، فقلت له : هذا كتاب عزيز عليّ ، واحب ان لا تنظر اليه المراقبة ، نظرة وجل أو عداء ، فتشوّهه ، وانا حريص على سلامته ، فاقرأه غير مأمور ، يتكون عندك فكرة عنه ، ما أشك في انها تحملك على مشاطرتي هذا الحرص ، قال : أوَ يكون كتاب مثل هذا ، تكتبه أنت ، في حاجة الى مراقبة ؟! أوفي متناول خطر المراقبة ! وفي مثل هذا العهد! عهد التحرر بعد العبودية ، والاستقلال

بعد الاستعمار ! اتركه لي ، اطالعه ، ثم ننظر في الامر . واطمئن .

وتركت لصديقي الكتاب ، واطمأننت . ومرت اسابيع ، فشهور ، فعاودت الصديق بالمسألة عن الكتاب ، وعاوده أصدقاء لي وله ، بالمسألة عنه ، ولكن الكتاب ضاع ... او ضاعت تلك النسخة منه . وكان ما يزال لدي نسخة ، كانت هي الاخرى بين يدي صديق كريم ، عالم قومي امين ، طلبت اليه ان يبدي لي ما قد يعوز الكتاب من ملاحظات ، استنير بها ، واهتدي بهديها ، وكان صديقي هذا نائياً ، ما للاتصال به حينئذ من سبيل . فلفّتني ملاءة من الم ، وعذاب روح ، واحاطت بي غيوم ، من خيبة أمل ، وضعف يقين . فانا أرجو لنفسي من صديقي هذا ، عذراً ، وامنح من نفسي ، لصديقي ذاك ، أو بالحري لذاك ، الذي كنت انا صديقه ، عذراً .

قد يرى القارىء ، في هذا التفصيل ، شيئاً ، يقول فيه ، انه لا يعنيه ، فروية هذا القارىء الكريم ، انها نفثة مكلوم ، وقد يكون في بعثها هكذا ، شيء من العبرة ، وشيء من التنبيه ، ثم اننا نحن ، جماعة القلم ، لسنا من حديد وخشب ، وهَبْ اننا من خشب وحديد ، فان للحديد والخشب نوعاً من البثّ والانين ...

وبعد ، فلست أعرف ، من بين امم الدنيا ، أمة نزل بها من الكوارث والمحن ، ما نزل بهذه الامة العربية ، في عهد من الانحطاط طال امده ، ولم تفنَ ، أو تندمج في غيرها من الامم ، او يشد عليها الشلل على الاقل ، غير هذه الامة .

وقد كان من الاسباب الرئيسية الاولى برأيي ، في امتداد عهد

الانحطاط ، وفي امعان التفسخ ، وتفشي الضعف والفقر والذل في العرب ، جهل العرب انفسَهم ، هـذا الجهل المركب ، أو الذي رُكّب لهم ، من أنواع من الجهل ، متفاوتة المقادير ، متنوعة الالوان . هـذا الجهل الذي اظلمت له آفاق العرب ، فتناولت هذه الظلمة ، بمقدار ، آفاق الدنيا كلها . فليس غير العرب ، أمة ، تستطيع ان تملأ الدنيا ، من غير ما تفريق ، بين العناصر ، والاجناس ، والاديان ، والالوان ، بالانوار الضاحكة المحسنة : أنوار الهدى ، والعدل والصلاح والسمو . وستفعل . ولكن ، لكي يقدر العرب ، على حمل هذه الرسالة ، يجب أن تنير هذه الانوار من جديد ، آفاقهم اولاً ، ثم يفيضون منها على الدنيا ، كما فعلوا من قبل ، ما شاءت لهم مكارم الاخلاق .

ولن يؤدي العرب ، رسالتهم هذه ، قبل أن « يربحوا » قضيتهم القومية ، وهذه هي قضيتهم ، يصورها هـذا الكتاب المتواضع ، فيجعل منها صورة ذهنية ، بارزة واضحة .

ولست اعني بقولي هذا ، انني ادّعي الاحاطة ، بكل ما يمكن أن يُكتب في موضوع هذا الكتاب ، استغفرالله ، ولكنني أعتقد ، انني فتحت الباب ، لاهل الفكر والقلم ، من أولي العلم الغزير ، والاطلاع الوافر ، والايمان المكين ، واين انا من هؤلاء !

وسيشعر القارىء الكريم ، بانني تعمّدت طريقة السؤال والجواب ، تعمداً ، في كتابي هذا ، واخترت السهولة في التعبير متعمداً أيضاً ، وذلك لأسهّل لجمهور القارئين ، استيعاب الفكرة التي

اعالجها ، إستيعاباً تاماً . فما انكر ، انني ، نويت ، منذ ان كتبت أول سطر من هذا الكتاب ، ان اخاطب « الجماهير » العربية ، في الدرجة الاولى ، بكتابي هذا الصغير .

واني لمتوجه الى الله سبحانه وتعالى ، بكل ما في ذاتي العربية ، من ايمان وحب ، أسأله أن يكون في هذا العمل الضئيل ، شيء من الخـــير ، لامّتي ، مهما يكن قليلاً ، ذلك حسبي ، وهو خير مسئول ، وهو ولي العاملين المؤمنين الصابرين .

بيروت ٥ حزيران سنه ١٩٤٦

علي ناصر الدين